

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وإله الأولين والآخرين، وصلاة الله وسلامه ورحمته على صفوة خلقه، وخاتم أنبيائه ورسوله، سيدنا محمد وآله الطاهرين وصحابته أجمعين، ورحمة الله ومغفرته للتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

الحمد لله وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده، أحمدُه سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أستفتح بالذي هو خير: {رَبَّنَا عَلِّمْنَا لِنَا إِلَيْكَ وَأَنْبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [الممتحنة:

.[٤]

{يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل

عمران: ١٠٢].

{يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ} [النساء: ١].

{يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} ٧٠ {يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} ٧١ [الأحزاب: ٧٠ -

.[٧١]

{ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغْرِبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ} ٣٣ [لقمان: ٣٣].

{يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} ١ [الحج: ١].

أما بعد

فإن مما يلاحظ على أمة الإسلام في عصورها المتأخرة دنو الهمم والرضا بالدون والقيود عن معالي الأمور والاشتغال بالسفاسف والمحقرات.

وذلك على مستوى الأفراد والجماعات إلا من رحم ربك وقليل ما هم؛ ولهذا أصبحت الأمة غرضاً لأعدائها الذين تسلطوا عليها وجاسوا خلال ديارها، فساموها سوء العذاب من بعد كانت عزيزة مهيبة الجناح فهوت من عليائها، ونزلت من شامخ عزها، ولقيت صغاراً بعد شمم وذلاً بعد عزة وجهلاً بعد علم وبطالة بعد نشاط وتقاطعاً بعد ائتلاف وكادت أن تشرف على حضيض التلاشي والفناء.

وما أحوجنا - نحن المسلمين - أفراداً وجماعات - أن نرجع إلى ديننا وأن نعلي هممنا حتى يعود لنا مجدنا السليب وعزتنا المسروقة. وإن مما يعين على أن تُذكى معاني الهمة، وأن تحرك في النفوس قراءة ومتابعة سيرة نبينا محمد ﷺ فلا تعرف الأرض همة أعلى من همته، ولم تظل السماء رجلاً أشرف مقصدًا، وأنبل مرادًا من رسولنا عليه الصلاة والسلام، وكذلك سيرة الصحابة رضوان الله عليهم وسيرة سلف الأمة الصالح رحمهم الله، وجمعنا الله وإياهم في الفردوس الأعلى من الجنة إنه ولي ذلك والقادر عليه.

إن صاحب الهمة العالية والنفس الشريفة التواقفة لا يرضى بالأشياء الدنية الفانية، وإنما همته المسابقة إلى الدرجات الباقية الزاكية التي لا تفنى ولا يرجع عن مطلوبه، ولو تلفت نفسه في طلبه ومن كان في الله تلفه كان على الله خلفه.

وإذا كانت النفوس كبارا :: تعبت في مرادها الأجساد
قال عمر بن عبد العزيز: إن لي نفسًا تواقفة ما نالت شيئاً إلا
تاقت إلى ما هو أفضل منه، وإنها لما نالت هذه المنزلة يعني الخلافة

وليس في الدنيا منزلة أعلى منها تاقت إلى ما هو أعلى من الدنيا يعني الآخرة.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم :: وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها :: وتصغر في عين العظيم العظام.

ومن دنو الهمة الرضا بالدون مع القدرة على ما هو أفضل وأحسن، قال ابن الجوزي في صيد الخاطر: من علامة كمال العقل علو الهمة، والراضي بالدون دنيء.

ولم أر في عيوب الناس عيباً :: كنقص القادرين على التمام والله أيها الأحبة! إنني على ثقة أن في شباب أمتنا وفتياتها ورجالها ونسائها خيراً كثيراً، وأن في وسعهم وطاقتهم الكثير الكثير، ولكن السلبية تلك الداء العضال - أعاذنا الله وإياكم منها - إن الله يربي المؤمنين على التطلع إلى أعلى المقامات، فيقول سبحانه على لسانهم: ﴿رَبَّنَاهَبْنَا مِنْ أَرْوَجِنَا وَذُرِّيَّتِنَا فَرَّةً أَعْيَبَ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

انظر ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] لم يقل سبحانه وتعالى: واجعلنا من المتقين! ولكنها تربية على الهمة العالية والعزيمة الصادقة ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

إن الله عز وجل يريد منا أن نكون ذا همة عالية، لا أن نكون من المتقين فقط، بل أن نكون إماماً للمتقين هكذا يريد الله عز وجل أن يربي هذه النفوس، واسمع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول: «إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس الأعلى» لماذا هذا الأمر؟! (فاسألوه الفردوس الأعلى) لأن المسلم صاحب مبدأ، وهو على الحق فإن عاش عاش عزيزاً، وإن مات مات شهيداً، والله معه مؤيداً وحافظاً، والجنة مستقره وموعده.

اسمع لابن الجوزي وهو يقول رحمه الله تعالى: والله أقوام ما رضوا من الفضائل إلا بتحصيل جميعها، فهم يببالغون في كل علم

ويجتهدون في كل عمل، ويثابرون على كل فضيلة، فإذا ضعفت أبدانهم عن بعض ذلك قامت النيات نائبة وهم لها سابقون، وأكمل أحوالهم إعراضهم عن أعمالهم، فهم يحتقرونها مع التمام، ويعتذرون من التقصير، ومنهم من يزيد على هذا فيتشاغل بالشكر على التوفيق لذلك، ومنهم من لا يرى ما عمل أصلاً؛ لأنه يرى عمله ونفسه لسيده.

واسمع لشعر هذا الكناس وعزته، قال الأصمعي: مررت بكناس - يكنس الشوارع - في البصرة ينشد يقول:

فإياك والسكنى بأرض مذلة تعد :: مسيئاً فيها إن كنت محسناً
ونفسك أكرمها وإن ضاق مسكن :: عليك بما فاطلب لنفسك مسكناً
هذا الذي يقوله الكناس، فقلت - أي: الأصمعي: والله لن يبقى بعد هذا مذلة، وأي مذلة بعد الكنس؟ فقال الكناس: والله لكنس ألف مرة، أحسن من القيام على باب مثلك.

هكذا تكون عزة المسلم أيًا كان ذلك العمل الذي يقوم به، ما دام أنه يقوم به لله عز وجل.

وإني لمشتاق إلى كل غاية من :: المجد يكبو دوها المتطاول
بدول مال حين يخل ذو النهى :: عفيف عن الفحشاء قرن حلال^(١)
إذا كانت النفوس كبارا :: تعبت في مرادها الأجسام
ولكل جسم في النحول بلية :: وبلاء جسمي من تفاوت همتي
إن الفرق بين العباقرة وغيرهم من الناس العوام ليس مرجعه إلى صفة، أو موهبة فطرية للعقل، بل إلى الموضوعات والغايات التي يوجهون إليها همهمهم وإلى التركيز الذي يسعهم أن يبلغوا هذه المنازل.

نحن مثلاً نرى من علماء الحديث من يقولون عنه: إنه كان يحفظ

(١) الحلال هو: السيد في عشيرته، الأمير في مجلسه.

كذا وكذا ألفاً من الحديث، أو يعرفون عن رجال الحديث ورواتهم كذا وكذا ألفاً وبعض الناس يقول: كيف هذا أي عقل يستوعب هذا؟

فنحن نقول: انظر إلى ما يحفظه كثير من الناس أو ما نحفظه نحن بمجموع ما عندنا كم يحفظ كثير من الناس من أسماء المغنين والمغنيات والفنانين والفنانات، واللاعبين واللاعبات، وأسماء المجالات وأسماء الأسطوانات، وكذا تجد أنه كم هائل ربما يعدل شيئاً من ذلك.

مثلٌ يسير.. الإمام البخاري - رحمه الله - كان جُل اهتمامه وتركيزه في الحديث، وبلغ فيه مبلغاً عظيماً حتى لُقّب بأمرير المؤمنين في الحديث.

انظر إلى عظمة التركيز في قصة واحدة قالها بعض أصحابه قال: نمت مع البخاري ليلة وإذا بي أحصي له ستة عشرة مرة يقوم فينظر في أوراقه فيدون شيئاً أو يُطالع شيئاً.

لماذا فكره مركز وهمه منحصر في ذلك إذا نام حتى إذا استيقظ تذكر شيئاً فقام.

أبو عبيد القاسم بن سلام - رحمه الله - له قصة طريفة أيضاً ذكرها مؤلف وفيات الأعيان يقول: كان يفكر في المسألة ولا يصل فيها إلى حل فجاء لينام وغلبته عيناه، ثم إذا به يستيقظ وظل طول ليله يفكر حتى الصبح ولكنه وصل فيها إلى نتيجة، قال: فما رأيت ليلة أبرك عندي منها.

إذا شغله شيء لا يلتفت إليه وحتى في مجال آخر.

زين العابدين - رحمه الله - كان يصلي في بيته واشتعلت النار في البيت، وجعل بعض الناس يصيح: يا بن رسول الله، النار.. النار! فما شعر إلا بعد أن أطفئت النار وخلصت الصلاة، قالوا: أما شعرت؟! قال: ألهاني عن النار النار الأخرى.

وعروة بن الزبير نعرف قصته لما سرى الداء إلى رجله قالوا:

نسقيك شيئاً من الخمر فنقطعها حتى لا تشعر! قال: لا! ما كنت لأستعين بمعصية الله، ولكن إذا دخلت في الصلاة فافعلوا ما شئتم، فقطعوها وغمسوها في الزيت المغلي حتى يلتئم جرحها.. وفي بعض الروايات التاريخية أن الوليد وهو الخليفة قال: وإني لأشم رائحة الشواء وهو في صلاته حتى أغمي عليه رضي الله عنه ورحمه الله.

هكذا يكون الانشغال بالقضية، وهذه قضية بشرية انظر إلى الذين ينشغلون ببعض الأمور والأعمال، أو المهمات التي يلتفت إليها بعض الناس من العباقرة، حتى في العلم تجده لا يعرف كيف يلبس الملابس! ولا يعرف كيف يأكل الطعام! ينشغل بشيء حتى إن الإمام مسلم - رحمه الله - وقصة وفاته فيها عبرة كانت عنده مسألة من الحديث فدخل إلى بيته ورجع - بعد أن راجعه بعض الناس في الدرس - يبحث فقال لأهله: لا يدخل أحد عليّ، فقالوا: أهدينا تمرأ، قال: قربوه لي، فجعل يأكل ويقرأ، يأكل ويطالع وهو لا ينتبه حتى أكل التمر كله، قالوا: فمرض بسبب ذلك فكان منه موته بقدر الله سبحانه وتعالى.

ذريني أنل ما لا ينال من العلاء :: فصعب العلاء في الصعب والسهل في السهل
تريدين إدراك المعالي رخيصة :: ولا بد دون الشهد من إبر النحل
وقال الآخر:

لولا المشقة ساد الناس كلهم :: الجود يفقر والإقدام قتال
فكن رجلاً رجلاه في الثرى :: وهامة همته في الشرى
إن الهمم العالية كنوز غالية يمتن بها المنان على من يشاء من بني الإنسان، فطوبى لمن أولاه مولاه تلك الهممة العالية والعزيمة الوثابة والإرادة الماضية، فما آفة المحق إلا التردد والتذبذب، والتخاذل والفتور، والرضا بتوافه الأشياء ومحقرات الأمور!

فعن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: أتى النبي ﷺ أعرابيٌّ فأكرمه، فقال له: «أئتنا»، فأتاه، فقال له رسول الله ﷺ: «سل

حاجتك». قال: ناقة نركبها، وأعزز يحلبها أهلي، فقال رسول الله ﷺ: «أعجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل؟!». :

قالوا: يا رسول الله! وما عجوز بني إسرائيل؟ قال: «إن موسى - عليه السلام - لما سار ببني إسرائيل من مصر؛ ضلّوا الطريق، فقال: ما هذا؟ فقال علماءهم: إن يوسف - عليه السلام - لما حضره الموت؛ أخذ علينا موثقاً من الله، ألا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا - أي بدنه، وهو من باب إطلاق الجزء ويراد به الكل، فالأنبياء لا تأكل الأرض أجسادهم كما صح بذلك الخبر عن خير البشر - قال: فمن يعلم موضع قبره؟ قال: عجوز من بني إسرائيل، فبعث إليها، فقال: دلّيني على قبر يوسف، قالت: حتى تعطيني حُكمي. قال: وما حكمك؟ قالت: أكون معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك، فأوحى الله إليه أن أعطاها حكمها، فانطلقت بهم إلى بحيرة موضع مستنقع ما، فقالت: انضبوا هذا الماء، فأنضبوه، فقالت: احفروا، فحفروا، فاستخرجوا عظام يوسف، فلما أقلّوه إلى الأرض؛ فإذا الطريق مثل ضوء النهار»^(١).

أرأيت الفرق الواسع والبون الشاسع بين من يريد أعزراً يحلبها وناقة يركبها، وبين من تريد مرافقة الرسول في الجنة؟! إنها الهمة العالية، و فقط!

والأمة الآن بحاجة إلى مدارس سيرة رجال يبعثون فيها الهمة العالية والقدوة الحسنة إلى رجال عاشوا يفتنون أثر الحبيب محمد ﷺ وساروا على دربه، إلى رجال تحيا القلوب بذكرهم، حتى تستيقظ الأمة من غفوتها، وتقوم من كبوتها، ولكن شتان ما بين رجال ورجال، شتان ما بين رجال خلد الله ذكرهم على مر القرون وهم أموات، ورجال لا وزن لهم ولا ذكر لهم وهم أحياء، أولئك تحيا القلوب بذكرهم، وهؤلاء تموت القلوب بمجالستهم.

(١) السلسلة الصحيحة - للألباني (٣١٣) وصحيح موارد الظمان (٤٥٢/٢) (٢٠٦٤).

يقول بشر الحافي: بحسبك أن أقواماً موتى تحيا القلوب بذكرهم،
وأن أقواماً أحياء تقسو القلوب برويتهم.

إنَّ البنفسجَ تتراحُ القلوبُ له :: ويعجزُ الوصفُ عن تحديدِ معجبهِ
أوراقه شعل الكبريت منظرها :: وريحه عنبرٌ تحيا القلوبُ بهِ
فالذكرى الحسنة لا تأتي من فراغ أو غثاء لذلك كان النداء من
السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيوضع له القبول في الأرض.

ليس من مات فاستراح بميت :: إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش ذليلاً :: كاسفاً باله قليل الرجاء
فأناس يمصصون ثماداً :: وأناس حلقوهم في الماء (١)

فهناك أناس أحياء الجسد لكنهم موتى القلوب {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ
كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ
ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)} [الأعراف:
١٧٩]، {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ
أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)} [الفرقان: ٤٤].

فهذا إبراهيم عليه السلام طلب الذكرى الطيبة لنفسه على جلاله
قدره: {وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤)} [الشعراء: ٨٤] والمعنى: اجعل لي
ذكراً جميلاً بعدي أذكر به، ويقتدى بي في الخير.

وليس الموت انقطاع النفس :: ولكن الميت من يحيا بلا أثر
يقول ابن القيم عن شيخه ابن تيمية: وعلم الله ما رأيت أحداً
أطيب عيشاً منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف
الرفاهية والنعيم، بل ضدها ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد
والإرهاق وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً،
وأقواهم قلباً، وأسره نفساً تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا

(١) الثماد الماء القليل يبقى في الحفر. والأبيات للشاعر عدي بن الرعاء الغساني،
والرعاء أمه. انظر: الأصمعيات: ٥، ومعجم الشعراء: ٢٥٢، وتهذيب الألفاظ: ٤٤٨،
والخزانة ٤: ١٨٧، وشرح شواهد المغني: ١٣٨.

اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضافت بنا الأرض أتيناها فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

صور من الأحلام تثلج خاطري :: ولقد تسر العاشق الأحلام
 صور رسمت أمام قلبي لوحة منها :: لعل جراحه تلتام
 صور وتنسفها وقائع أمي :: نسفا ويتلع المكان ظلام
 وعلي رصيف الليل طفل واهم :: نظراته نحو القلوب سهام
 وسؤاله الملهوف يحرق مهجتي :: أو ليس ديني يا أبي الإسلام
 أو ليس منهج أمي قرآنها :: فبه لها في العالمين مقام
 أو ليس قدوتنا الرسول محمد :: تهدي إليه صلاتنا وسلام
 أو ما لنا في المجد ألف حكاية :: تعبت على تدوينها الأقلام
 أو ما جرت أثمارنا رقراقة :: بالخير ترفع فوقها الأعلام
 أو ما لدينا النبع يصفو ماؤه :: وعليه من شفق القلوب زحام
 أو لم تكن جسر النجاة لعالم :: يشقي به الضعفاء والأيتام
 أو لم تصغ بدر بداية مجدنا :: لما تماوت عندها الأرقام
 ألف تقابل ثلث ألف إنها :: لأدلة للواهمين تقام
 أو يكن بالفتح صرف عقيدة :: في صدرها للمكرمات وسام
 أو ما تري في الكون صوت بلالنا :: وعلي صداه تماوت الأصنام
 أو لم تكن ذات السلاسل لوحة :: مرسومة وإبأونا الرسام
 أو ما رأي اليرموك كيف استبشرت :: بيزوغ فجر المسلمين الشام
 أو لم تكن للقادسية قصة :: أدلي بوصف شموخها الصمصام
 أو لم نعلق في المدائن شمعة :: بيضاء فر أمامها الإظلام
 أو لم نلقن قيصرًا وحشوده :: درسا تحار أمامه الأفهام
 أو لم ندع كسري على إيوانه :: يكي وتأكل صدره الآلام

أو لم يسلم جاذويه سلاحه	:::	فرقا ويندب حظه بهرام
أو لم تخض بحر البطولة خيلنا	:::	وبقلب أندلس لها إعظام
أو لم تقل للصين خيل قتيبة	:::	جئنا يزف صهيلنا الإقدام
أو لم تفض حطين لحنا خالدا	:::	تقفوا إلى أنغامه الأنغام
أو لم تكن في عين جالوت لنا	:::	همم لردع المعتدين عظام
أو هكذا ننسي المفاخر مثلما	:::	ينسي الصغير هوي الرضاع فطام
أو هكذا أبتاه تسكر أمتي	:::	سكرا يقدم كأسه الإعلام
أو هكذا تطوي عزائم جيلنا	:::	قصص تصور فحشها الأفلام
قل لي أبي أنظّل نأكل خبزنا	:::	وعليه من دمنا المراق إدام
قل لي أبي أنظّل نشرب ماءنا	:::	والقدس يهتك عرضها وتضام
قل لي أبي أبيت طفل ساهرا	:::	في كفه حجر ونحن ننام
ورمت عيون المخبرين وراءه	:::	وعلي شفاه الصامتين خطام
سكنوا لأن السيف مسلول إذا	:::	نطقوا بما لا يرغب الأقسام
سيفان يا أبتاه سيف عدونا	:::	صلت وسيف سلّه الحكم
وغرور أمريكا أحال رجالنا	:::	خشبا تسمر فوقه الأحلام
أو ما لنا أبتاه عزم صادق	:::	أو ليس بين صفوفنا مقدام
أو ما لنا في السلم نهج واضح	:::	أو ما لنا وقت الحروب حسام
أو ما لنا في عالم اليوم الذي	:::	يجري طريق واضح ونظام
أبتاه هذا بيتنا قد هدمت	:::	جدراناه وأماننا المهدام
أبتاه هذا جسم أمتنا تري	:::	يه اللظى واستشرت الأورام
أبتاه هذا درب أمتنا شكى	:::	يه الثري ما تصنع الألغام
كفر وربك يا أبي ينوي بنا	:::	را ونحن كأننا الأنعام
قل لي أبي أنظّل نعلق صمتنا	:::	على الأنوف مذلة ورغام
أنظّل نخفض للصليب رؤوسنا	:::	ينام فوق فراشنا الحاخام
أو هكذا أبتاه ننسي ديننا	:::	ويزيحننا عن مجدنا استسلام
كان الأب المسكين يحبس دمه	:::	لحزنه بين الضلوع ضرام

أبني لا تنطق فقد أجمتني :::: واه كم يؤذي الكريم لجام
 هذه هي الأمراض قد فتكت بنا :::: عصرنا ودواءها الإسلام
 إن أمتنا بحاجة ماسة إلى القدوة الفعلية المهدتية بالكتاب والسنة
 وهدى سلف الأمة التي تقف الألفاظ البليغة والعبارات القوية أمام
 فعلها عاجزة عن التعبير والوصف.

والقدوة الحسنة هي وسيلة عملية في البناء الخلقي، ولن تصلح
 التربية إلا إذا اعتمدت على الأسوة الحسنة (١)، والتاريخ الإسلامي
 حافل بنماذج حية للشخصيات الأخلاقية الكريمة، للترغيب في
 أخلاقهم، ومحاكاة الحسن منها، قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ
 فِيهِمْ أَقْتَدَةٌ} [الأنعام: ٩٠]، كما حفل بنماذج أخرى ضدها للتفسير
 من محاكاتها، قال ابن حزم: ولهذا يجب أن تؤرخ الفضائل والردائل،
 لينفر سامعها من القبيح المأثور عن غيره، ويرغب في الحسن
 المنقول عن تقدمه ويتعظ بما سلف (٢).

وقد سبق في القرآن الكريم تجارب الأنبياء الأخيار لينتفع منها
 النبي محمد ﷺ، فلما أمر محمد عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي
 بالكل، فكأنه أمر بمجموع ما كان متفرقا فيهم، ولما كان ذلك درجة
 عالية لم تتيسر لأحد من الأنبياء قبله لا جرم وصف الله خلقه بأنه
 عظيم (٣)

والقدوة الحسنة عنصر هام في كل مجتمع، فمهما كان أفراد
 صالحين فهم في أمس الحاجة لرؤية القدوات، وكما قيل: جالسوا من
 تذكركم بالله رؤيتهم، كيف لا وقد أمر الله نبيه بالافتداء فقال: {أُولَئِكَ
 الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيهِمْ أَقْتَدَةٌ} [الأنعام: ٩٠].

وتشتد الحاجة إلى القدوة كلما بعد الناس عن الالتزام بقيم الإسلام

(١) خلق المسلم للشيخ محمد الغزالي ص ١٦.

(٢) الأخلاق والسير ١٩٥.

(٣) مفاتيح الغيب للرازي ٢٩ / ٨٠.

وأحكامه، وتتأكد الحاجة بل تصل إلى درجة الوجوب إذا وجدت قذورات سيئة فاسدة تُحسِن عرضَ باطلها.

إن القدوة - سواءً أكانت حسنةً أو سيئةً - أكثر أثرًا وإقناعًا من الكلام النظري مهما كان بليغًا ومؤثرًا، ولعل هذا هو السرُّ في إرسال الله رسلاً من البشر عبر التاريخ مع أنه تعالى قادر - وهو الذي لا يعجزه شيء - على أن يلهم الناس شرعه، خاصة أن بشرية الرسل تعلَّل بها الجاحدون لرفض الإيمان كما قال تعالى: { وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا } [الإسراء: ٩٤]، لكن الذي قال عن نفسه: { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الملك: ١٤] اقتضت حكمته إرسال الرسل من البشر؛ ليكونوا منارات هدى وقذورات حسنةً عبر التاريخ، فهم التطبيق النموذجي لشرع الله في كل عصر، وتطبيقهم حجةً على العباد ودليلٌ على واقعية الشرع.

وأوضح دليل على هذا الأثر ما وقع في يوم الحديبية، ففي صحيح البخاري قال عمر: فلما فرغ من قضية الكتاب - أي: بنود الصلح - قال رسول الله لأصحابه: «قوموا، فانحروا ثم احلقوا»، قال: فوالله، ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يبق منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بؤنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بؤنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يطلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا.

إن هذا التأثير القوي والمباشر للقدوة يرجع إلى عدة أسباب منها: أن الإنسان مفطور على حب التقليد، وكثيرًا ما يكتسب معارفه وخبراته ومهاراته بالتقليد والمحاكاة، انظر إلى الطفل كيف يحاكي أباه وينقصد شخصيته؛ لأن التعلم بالرؤية والمشاهدة أسهل وأيسر

بل وأسرع، والنفس بطبعها تحبّ الحصولَ على الشيء بأسهل الطرق وأسرعها ولو كان محرماً، لكن الشرع والعقل يضبطها.

وقوع الإنسان - مهما كان كسولاً أو مقصراً - أسيراً للقذوة، فيحمله ذلك الإعجابُ على التقليد والمحاكاة، وهنا تكمن خطورة الموضوع؛ لأنّ القذوة إما أن تكون حسنةً لها بريقها الذاتي فتتجذبُ إليها النفوسُ تلقائياً وتتأثر بها إيجابياً، وإما أن تكون قذوةً سيئةً زخرفت وزينت بالأصباغ والألوان الخادعة، وسلط عليها الأضواء الإعلامية الباهرة، وأضفي عليها عباراتُ الثناء والتمجيد الكاذبة لإثارة إعجاب المخدوعين، وحقاً منهم من يقع في حبالهم وشراكمهم، حتى إذا فحصه عن قرب أدرك أنه كسراب بقية يحسبه الظمان ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، بل تبين له الوجه الحقيقي.

يا أمة الإسلام لن تتسني :: رتب العلا بالمال والأحساب
 لن تسلكي درب الخلاص بمدفع :: وبكثرة الأعوان والأصحاب
 لن تبلغي إلا بنهج صادق :: وتعلق بالخالق الوهاب
 تفنى الجيوش وتنتهي آثارها :: ونال بالإيمان عز جناب
 تفنى القوى مهما تكاثرت عدها :: وتظل قوة ربنا الغلاب
 ومطالعة السير، وأخبار أهل الصلاح وذويهم من أكثر الأسباب المعينة على الهمة العالية والمفضية إليها والمؤدية إلى طريقها فإنها تشعل في القلب نار الحماسة وتذكي فيها العزيمة والجد بحيث لا يتوانى ولا يتكاسل ولا يتأخر وقد قال ابن الجوزي رحمه الله إن النظر في سير القوم حياة للقلوب وإعلاء للهمم.

ونعلم أن من سير الصحابة والتابعين والسلف الصالح - رضوان الله عليهم - ما لو تدبره وتعلق به المرء لكان خيراً له وسبباً من الأسباب التي تعينه بإذن الله عز وجل على فهم الواقع وتفسير الأحداث وما يحيط به.

والهدف من عرض النماذج الحسنة أن يقف المرء على حمد المتقين

الأخيار للفضائل فيرغب فيها ويسمع ذمهم للرزائل فيكرهها؛ ويقرأ أخبار الصالحين فيجب أن يكون منهم وأخبار المفسدين فيمقت طرائقهم.

والحقيقة أن النظر في حياة الصالحين والمصلحين وتراجهم حياة القلوب وتزكية النفوس وزيادة الإيمان ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين.

وفكرة هذا الكتاب قد قامت على جمع معظم التراجم التي قد عالجتها في أعمال السابقة التي وفقني الله في إتمامها، ومن ثم قمت باختصارها وإعدادها لتناسب القاريء، ثم أضفت لها بعض المقالات والتراجم لبعض مشاهير الأمة الإسلامية في شتي المجالات حتى تعم الفائدة. على أمل أن يعينني الله عز وجل وأن يكتب لي القيام بإفراد مجلد خاص بأعلام الصحابة والتابعين والفقهاء والقضاة... كل على حدة.

وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله مني ويثيبني عليه.

رب تقبل عملي ولا تخيب أمني أصلح أموري كلها قبل حلول الأجل.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه،

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *